مجلة دراسات تاريخية

NISSN: 9741-2352 EISS :6723-2600

مجتمع الزيبان من خلال رحلة بول فويللو خلال القرن 19م

Ziban community through Paul Vuillot's journey

علي لعبيدي
Ali labidi
جامعة االجزائر2
ai.labidi@univ-alger2.dz

حفيظة زلاط
Hafida zelat
جامعة يحي فارس- المدية
مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور
Zelate.hafidha@univ-medea.dz

الارسال: 22/03/01 القبول :22/03/08 النشر:2022/04/16 المرسل: علي لعبيدي

الملخص:

تعتبر الرحلات على اختلاف أغراضها و تباين دوافعها ظاهرة قديمة قدم الإنسان، وهي تربط المكان في زمن معين بمن يطلع على محتواها من الأجيال اللاحقة، و لطالما كانت الجزائر بمختلف جهاتها قبلة للرحالة على مر العصور، و لاسيما خلال القرن 19م، ومن الرحالة اللذين زاروها في هذه الفترة الفرنسي بول فويللو الذي قام برحلة حول الشطوط انطلاقا من مدينة بسكرة إلى بلاد الجريد بتونس ليعود في مسار دائري إلى نقطة الانطلاق، و الهدف من هذه الدراسة هو معرفة الأوضاع الاجتماعية بمختلف جوانبها في منطقة الزيبان من خلال مانقله الرحالة من ملاحظات و ما عاشه من أحداث.

الكلمات الدالة : بول فيللو، الزيبان، الشطوط، الجريد، الرحلات .

مقدمة:

تعد الرحلات على اختلاف أغراضها، و تباين أبعادها و أزمنتها ، ظاهرة بشرية قديمة قدم الإنسان ذاته، إذ تعتبر مصدرا للمعلومة ووثيقة شاهد عيان لا يستغني عنها المؤرخون، فهي أداة لنقل الواقع لما بعد زمنه، و ذلك لما ينقله صاحب الرحلة من مشاهدات و ملاحظات و أحداث، عايشها عن قرب أو سمعها من أناس عاشوها، خاصة و هي تنقل الجزئيات و تتميز بالصدق و الحيادية.

و قد حظيت الجزائر مثل الكثير من الأقطار الأخرى، برحلات عديدة، لا سيما خلال القرن التاسع عشر و ما قبله، فكانت تلك الرحلات منهلا لكثير من المؤرخين، لما تتضمنه من معلومات عن واقع تلك الفترة، و عن شتى مظاهر الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية بها. و تعتبر الصحراء من المناطق الجديدة بالنسبة للأوربيين و المثيرة لاهتمامهم و فضولهم في اكتشافها، فقد مر بها العديد من المستكشفين الرحالة، كألكسندر راتو الذي زارها سنة 1878م، الكاتب الفرنسية لويس ريجيس سنة 1879، وبول بورد الذي جاءها مع النواب الفرنسيين لغرض سياسي، و جون روبرت، و غيرهم. تعتبر رحلة بول فويللو paul vuillot التي قام بها في أواخر القرن التاسع عشر بمنطقة الزاب شمال شط ملغيغ، و بجزء من بلاد الجريد التونسي، ثم العودة إلى مكان انطلاقه بمدينة بسكرة عبر جنوب شط ملغيغ، من أهم الرحلات، نظرا لما تحتويه من معلومات عن جغرافية المنطقة و عن المجتمع الذي عايشه الرحالة على طول مساره، و من خلال هذه الدراسة نسعى للاطلاع على المظهر الاجتماعي من خلال رحلته، فما هو مسار رحلته، و كيف كانت أوضاع مجتمع الزيبان خلال القرن التاسع عشر، من خلال ما نقله بول فويللو في رحلته؟

1. التعريف بالرحالة و مسار رحلته:

1.1- التعريف بالرحالة:

بول فويللو Paul Vuillot، ولد في الرابع و العشرين نوفمبر من سنة 1868م بسان إيل دوفرانس (ile de sein de France) بباريس، هو حفيد مؤسس المصنع الباريسي لأجهزة التهيئة، توفي في 28 جويلية 1916م ب لواريه (Loiret) بفرنسا، بعمر 47 سنة. و كان فويللو مستكشفا و جغرافيا و رسام خرائط و عالم طبيعيات، بالإضافة لكونه رجل صناعة في مجال صرف المياه، كما مثل بلاده و زملاءه كمندوب عنهم في مجال المعدات الصناعية بالمعرض الدولي سنة 1900م، و كذا بالمؤتمر الخاص بالغرف التجارية و الغرفة النقابية، و باللجنة العليا للاتحاد المعدني و المناجم الفرنسية، لكنه كرس اهتماماته كعضو في الجمعية الجغرافية لباريس، و في عضوية الشركة الجغرافية التجارية.

أما عن إنجازاته و آثاره، فعلى الرغم من قلتها إلا أنها تبقى ذات أهمية كبيرة في مجال التاريخي، ومنها حوالي 194 صورة بطاقية عن الجزائر و تونس نقلها إلى فرنسا ما بين 1890 و 1892م، منها 174 صورة من هذه

الرحلة التي نتناولها بالدراسة، كما قام بالتركيز و الاهتمام بتفاصيل و جزئيات الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر. و كانت له رحلات أخرى ابتدأها برحلته إلى ضواحي ورقلة سنة 1888م و عمره عشرون عاما، ثم أعقبها برحلة ثانية بعد زواجه مباشرة و قد رافقته فيها زوجته، إذ زار فيها الشمال الشرقي للصحراء الجزائرية و بالضبط منطقتي الشطوط الجزائرية و التونسية سنة 1892م،[1] و هي الرحلة التي نتناولها بالدراسة في هذا المقال، و الموسومة ب:

« Des Zibans au Djerid par les Chotts Algériens »، « من الزيبان إلى الجريد عبر الشطوط الجزائرية »

2.1 مسار الرحلة:

تمثل مسار هذه الرحلة في شكل شبه دائري حيث كان الانطلاق من مدينة بسكرة[2] بمنطقة الزاب بالشمال الشرقي للصحراء الجزائرية باتجاه الشرق، ثم العودة إليها من الناحية الجنوبية عبر خط سير شبه دائري حول شط ملغيغ، ، و قد تمت هذه الرحلة خلال شهر كامل و يوم، قطع رحالتنا خلالها أزيد من 600 كلم، مجتازا في رحلته 21 محطة متفاوتة المسافات، أقلها 15 كلم، و أقصاها 48 كيلومترا. فقد انطلق من مدينة بسكرة (عاصمة الزيبان) باتجاه الجنوب التونسي أين زار مدينتي توزر[3] ثم نفطة عابرا مايعرف بالزاب الشرقي الواقع شمال شط ملغيغ، و الذي يضم مجموعة من القرى و المدن، بدأ بمدينة سيدي عقبة إلى قرى عين الناقة وزريبة الوادي و و نقرين...، ثمم بعد مدينتي توزر و نفطة التونسيتين، و بعد قطعه حوالي 347كلم، عاد ملتفا حول شط ملغيغ جنوبا عابرا عدة محطات باتجاه نقطة الانطلاق مدينة بسكرة، قاطعا مسافة تقدر بحوالي 259كلم، ليعود بعد أزيد من شهر محملا بملاحظات كثيرة في مختلف الجوانب العلمية، البيئية، و الاجتماعية، مدونا إياها تحت عنوان من الزيبان إلى الجريدعبر الشطوط الجزائرية، و قد استعان في تحقيق رحلته بفريق معه من بينهم زوجته و فرنسي آخر و بدليل من الأهالي، بالإضافة إلى خريطة رودير (Roudaire)[4]

3.1 فريق رحلة بول فويللو:

كانت قافلة الرحالة بول فويللو عند انطلاقها من بسكرة يوم 5 مارس 1892ممن سبعة أفراد و هم:

صاحب الرحلة بول فويللو Paul Vuillot

زوجته: بارث بلوزات Berthe Bluzet

خادمه الفرنسي: جان فيون Jean Guillon

دليله: الشاوش مسعود بن شبانة (من قرية القنطرة).

الجمال: و هو شخص مكلف برعاية الجمال أكلا و شربا و رباطا

بغالان اثنان: علي و إبراهيم.

بالإضافة للحيوانات التي كانت مع القافلة، و هي جمل و أربع بغال لحمل المؤونة والمتاع الخاص، و حصان سيشتريه من قرية زريبة الوادي لاحقا.[5]

4.1 الرحلات و الاحتلال الفرنسي:

نظرا لما للرحلات من أهمية في كتابة التاريخ باعتبارها مصدرا للمعلومات و الوقائع، فقد اعتنى بها الاحتلال الفرنسي سواء في الجزائر أو في باقي مستعمراته، و قد جند لها إمكانيات بشرية متخصصة و إمكانيات مادية معتبرة و أخرى تقنية متطورة، و هذا في سبيل التمكن من جمع المعلومات بغرض تحقيق مآربه المختلفة. و لم يكن اهتمامه منصبا على فترة تواجده بالجزائر فحسب، بل اهتم كذلك بالعهد العثماني، إذ ترجم رحلات تلك الفترة و أضافها لأبحاثه الميدانية ليقف على ثقافة المجتمع و معرفة إثنياته، و كل صغيرة و كبيرة عنه، حتى يكون على دراية مع من يتعامل و كيف يتعامل، و لأجل ذلك فقد أنشأت السلطات الاستعمارية الفرنسية لجانا علمية و فرق بحث ، و كونت جمعيات و أنشأت دوريات و مجلات لتدوين ما يجمعه العلماء من معلومات تاريخية. كما شجعت المغامرين و دور النشر من أجل نشر و دراسة المؤلفات المتعلقة بذلك، و خاصة كتب الرحلات و ترجمتها، و الانطباعات التي دونها الرحالة عن الجزائر قبل الاحتلال و خلاله، و من أولئك شيلر، شو، بانانتي، روندو، هايدو، وفانتور دي بارادي، بل و حتى بعض الرحالة العرب كالبكري و العياشي وابن خلدون و حسن الوزان و غيرهم.[6]

2. أنواع الرحلات

1.2 الرحلات المتنوعة أو الشاملة:

هي الرحلات ذات الأغراض المختلفة، التي لا يهتم الرحالة فيها بجانب معين، بل يدون ملاحظاته عن كل ما يراه أو يعايشه في فترة رحلته، و مثال ذلك رحلة الأب بيار دان

(père Pière Dan) الذي قام برحلته إلى الجزائر خلال العهد العثماني، و رغم قصر المدة التي قضاها هنا، إلا أنه استطاع تدوين ملاحظاته التي نشرت بشكل كتاب بعنوان:

« Histoire de Barbarie et se Corsaires » ، أي تاريخ بربارية ، قراصنتها وممتلكاتها (مدن الجزائر، تونس، سلاو طرابلس) ، فتكلم عن الأعراق المتواجدة بها، كما وصف المدن التي زارها كعنابة و الجزائر، و عن كيفية دخوله إلى شمال إفريقيا، و عن عودته إلى فرنسا، و كذا الحالة الاجتماعية و علاقة السكان بالأتراك، و عذاب الأسرى بالجزائر، و هيئة الثالوث المقدس[7] و عن فداء الأسرى.[8]

و كذلك مثل رحلة الوزان (وصف إفريقيا) ، و رحلة مارمول كرباخال marmol karvajal، و رحلة أبو القاسم الزياني (1734-1833م).

2.2الرحلة التجسسية:

تكون في غالب الأحيان مرتبطة بالجيوش و الاستراتيجيات العسكرية مثل رحلة، قريقروفيتش كوكوفتسوف (Grigrovitch Cocovtsov) و التي نشرها سنة 1787م في كتاب بعنوان« وصف أمني للجزائر» ، و هي مجموعة من الرسائل كتبهافي عهد الأميرة كاترين الثانيةالتي حاولت تأمين تجارة بلادها بالبحر المتوسط، بإنشاء قواعد عسكرية به بعد كسب ود الدولة العثمانية و دول شمال إفريقيا، بما فيها الجزائر، فجاء من مدينة ليفورن (Livourne) لزيارة المدن الساحلية كالعاصمة و عنابة ، فيجمع المعلومات المهمة عن البحريتين الجزائرية و التونسية.[9] و كذلك رحلة ميقال دي سرفانتاس، الذي قضى خمس سنوات في الأسر بوهران، و ما أن تم افتداءه من طرف trinitaires في أكتوبر 1580م، عاد إلى الجزائر كمبعوث من ملك اسبانيا و البرتغال و هذا بعد أقل من ثمانية أشهر من افتدائه، في مهمة خاصة لصالح إسبانيا في مخططاتها لضرب الجزائر، لكونه_ يعرف المنطقة[10]، كما لا ننسى الضابط بوتان الذي أقام بالجزائر سنة 1808م على أنه من هواة الآثار، و استقبله القنصل الفرنسي دوفال. قد جمع معلومات هامة عن مدينة الجزائر و رأس تامنفوست، و كانت ذات أهمية بالغة في لحملة عام 1830م[11].

3.2 **الرحلة الاجتماعية:**

هي التي تتم بغرض دراسة المجتمع المقصود من طرف الرحالة، الذي تكون جل اهتماماته منصبة حول الوضع الاجتماعي، فيقوم بتدوين كل ما يلاحظه في رحلته، فتستغل لاحقا إما من طرف المؤرخين، أو من طرف المحتلين فتصبح ذات بعد سياسي إضافة لكونها اجتماعية، و تسهل هذه الكتب فهم المجتمع فيسهل التعامل معه من قبل المحتل. و من هذه الرحلات نذكر رحلة جوهان كارل بيرنت (Johan Carl Berndt) الذي قدم لنا صورة عن المرأة البدوية و مكانتها الاجتماعية في الجزائر، من خلال كتابه " الأمير عبد القادر"، الذي عدد فيه الأشغال التي تمارسها المرأة من إعداد الطعام و الشراب، و وجلب الماء من خارج الخيمة سواء من البرك أو الوديان أم الينابيع، و جلب الحليب من الحيوانات،[12] و تحويله إلى لبن و استخلاص الزبدة منه، كما تتولى المرأة البدوية طحن الحبوب يدويا بالمطحنة الحجرية، و كذا مشاركة الرجل ببعض الأعمال من حصاد و درس..، إضافة لتربية الصغار و الاعتناء بعلاجهم و تدريب البنات على مختلف الأعمال. كما يتطرق إلى حياة المرأة العاطفية بالوصف و الأخبار عن الزواج و الخيانة و الزواج المبكر، و عقاب الخيانة، و حفلات الزواج و المأكولات...، و بنفس الشاكلة قام الرحالة البولوني جون بوتوكي بوصف المرأة المغربية من خلال رحلته إلى المغرب الأقصى.[13]

4.2 الرحلة الدينية:

يقوم بها فرد أو جماعة قصد زيارة أماكن المقدسة، و أداء شعائر دينية بها، كرحلات الحج الإسلامي إلى المسجد الأقصى أو المسيحي إلى بيت لحم، أو إلى مكة و المدينة فيما يعرف بالرحلة الحجازية، أو تلك الرحلات التبشيرية كالتي قام بها شارل دو فوكو مطلفع القرن العشرين، إلى منطقة الهقار ، أو رحلة الكاردينال لافيجري من فرنسا للجزائر[14]

3 الواقع الاجتماعي للمنطقة من خلال رحلة فويللو:

1.3 الطعام و الشراب:

يعتبر الكسكسي (الطعام)الغذاء السائد بالمنطقة وهو يعوض الخبز [15] ، و هو نوعان الأبيض و الأسود أي كسكسي القمح و كسكسي الشعير،[16] إضافة لبعض الأطعمة الأخرى كاللحم المشوي الذي لم يكن طعاما سائدان بل يقدم للضيوف المبجلين وذوي المكانة الرفيعة فقط، بالإضافة للأطعمة الأخرى ذات الإنتاج المحلي كالتمر[17] و البيض و الشربة و العسل (حيث قدم لهم شيخ تامزرة عسلا).

أما الأشربة، فبالإضافة للمياه المجلوبة من الآبار والوديان الجارية أو البرك، فإن الشراب الذي يقدم عادة مع الطعام هو الحليب بأنواعه سواء طازجا أو لبنا، بالإضافة لشراب موسمي يعرف باللاقمي، و هو لا يتوفر غلا بالواحات، لكونه شرابا نباتيا يستخرج من النخيل، و يشرب في يومه، لأنه لا يحتمل التخزين أو التعرض للشمس، لأن ذلك يحوله من شراب مستساغ لذيذ إلى خمر. إضافة إلى ذلك كانت القهوة موجودة لكنها نادرة[18]

2.3 الكرم و حسن الضيافة و الاستقبال:

يعتبر الكرم و حسن الضيافة من الخصال و الأخلاق التي يتميز بها العرب ، و تتحلى هذه الصفات أكثر لدى سكان الأرياف و الصحراء على وجه الخصوص، و هذا ما ذكره و أشاد بهر حالتنا خلال لقاءاته بالسكان سواء الحضر منهم أو البدو الرحل، ففي أولى محطات رحلته ذكر أن الشيخ لخضر شيخ مدينة سيدي عقبة قد استقبلهم و أكرم نزلهم و أغدق عليهم بكرمه، ثم أكد على هذا الكرم ببلوغه قرية عين الناقة التي قضى بها النهار و الليل في دار شيخ الدشرة المعروفة بدار الشيخ الهادي، كما أنه عند بلوغه زريبة الوادي نزل ضيفا كذلك على شيخ القرية المدعو محمد بن مسعود[19]

، و يذكر فويللو أن كرم الضيافة لدى سكان المنطقة قد تعدى حدود تقديم الطعام، غلى الإيواء، وتوفير الأمن و الحماية، إذ يذكر أنه عندما حل بمنطقة بين زريبة الوادي و نقرين، نزل قرب أحد الدواوير،[20] و بعد تشاور و موافقة أهل الدوار ، قامت بعض النسوة بتفكيك إحدى خيامهن، و نصبها للضيوف قرب الدوار، في حين قام الرجال بذبح خروف لتحضير المشوي.

و في قرية فركان القريبة من الحدود التونسية، استضافه شيخ القرية الذي قدم له الطعام، و ذكر هنا فرش الزرابي الجميلة في الخيمة التي بنيت لهم خصيصا، و كذا توفير الحرس لأمن الضيوف. و عندما أوشك زاد الرحالة و من معه بالنضوب، إذ عبر عن ذلك بقولهّ قريبا سنصل إلى العدم" زودهم الشيخ بالكسرة و والتمر و البيض و أحيانا بالحطب و الحشيش للحصان كل صباح و مساء، كل هذا كان مجانيا، [21] و قد أجمل صاحب الرحلة و هو يتحدث عن ضيافة أهل الزيبان و كرمهم بقوله" ... و كل الذين طلبنا منهم الضيافة قد استضافونا بتسامح كبير، و بلا تردد و بقدر الاستطاعة و هذا حتى آخر دوار قبل دخول الأراضي التونسية، رغم مصادرهم الشحيحة..."، كما ذكر عدم تنوع الطعام مع كل هذا الجود و حسن الاستقبال، مما يدل على الأوضاع الاجتماعية المتوسطة الحال.

3.3 الأعراس و الأفراح:

الأعراس و الأفراح مناسبات و فرصا للتعبير عن الابتهاج و السرور بواسطة الأغاني والتعابير الجسدية كالرقص و البارود و الآلات الموسيقية. وتختلف طرق التعبير من منطقة لأخرى، سكان الزيبان لا يشذون عن غيرهم في التعبير عن الفرح و قد عايش فوبللو نموذجا من هذه الأعراس ، حيث اجتمع الرجال و النسوة في مكان فسيح ، وطبعا النسوة متحجبات إلا المتقدمات بالعمر، فالنساء في جهة و الرجال في الجهة المقابلة، و كانت الفرقة الموسيقية تعزف ألحانا إيقاعية، في حين النسوة تزغردن بين حين و آخر، مما يكسر روتين العزف المتواصل فيزيد ابتهاج الحاضرين، و في وسط الحلقة راقصات، و الرجال يطلقون البارود بشكل فردي أو جماعي، و تدوم الحفلة طول الليل و تكون الدعوة فيها عامة[22]

4.3 الدين و الاعتقادات:

عند إقامة فوبللو عند القائد مسعود أنه ذبح له خروفا وفق تاعليم الدين الإسلامي، فعقب على ذلك بقوله أن العربي (و يقصد به المسلم) لا ياكل الحيوان الذي لم يتم ذبحه، و تم توجيه وجهه ناحية الشرق عن الذبح، (و المقصود هنا هو القبلة)56

أما عن الطهارة، فتكون بالماء، و إن لم يوجد ماء فتكون بالرمل وفق الشريعة الإسلامية (و يقصد التيمم).59، أما عن نظافة الثياب فقد كانت النسوة تغسلنها في الجداول و الوديان[23]

و من مظاهر التدين في هذا المجتمع الصحراوي، نجد احترام الأديان الأخرى و الذي يتجلى في تصرفاتهم، و دليل ذلك وجود مقبرة للمسيحيين في كثير من المدن و القرى، كمقبرة نقرين التي تحتوي على أربعين قبرا لجنود فرنسيين، و رغم كونهم محتلين ومحاربين، إلا أن لهم حرمة، فهم محاطون بصور من جريد النخل، الذي يحميهم من عبث الإنسان و الحيوان.77 كما كانت النساء تزور المقابر يوم الجمعة، و هن تحملن الطعام[24]

5.3 التعليم:

استمر التعليم العربي في الانتشار بين الجزائريين عموما، إلا أنه لم يكن بنفس الانتشار بين المدن و الأرياف و بعض المناطق الصحراوية ، و كل ذلك حسب كثرة عدد السكان و قلتهم ، ومدى توفر المتعلمين بينهم (المعلمين)، إلا أن المثير للانتباه و الذي يستحق الإشادة، هو أنه رغم السياسة الاحتلالية التجهيلية الرامية لمحاربة اللغة العربية و التعليم الديني، فقد بقي المجتمع متشبثا بلغته ودينه. فقد كان التعليم موجود في بعض الأماكن التي يسودها الاستقرار و تعتبر حواضر إلى حد ما كمدينة سيدي عقبة، التي زارها رحالتنا، و زار مسجد عقبة بن نافع، أين شاهد قاعات ممتلئة بطلبة العلم، يقرؤون القرآن بأصوات عالية، و يحفظونها عن ظهر قلب[25]

، و الملاحظ في هذه الرحلة أن فويللو لم يتحدث عن التعليم كما تحدث عن الاستقبالات التي حظي بها و الأطعمة التي تناولها، لأنه لم يحدثنا عن المساجد و الزوايا المتواجدة منذ القدم بالمدن و القرى التي زارها، و التي كانت تعج بالمتعلمين، لكنه اكتفى بزيارة مسجد الصحابي الجليل عقبة بن نافع.في حين كان العياشي في رحلة عودته من الحج عن طريق توزر التونسية، ذكلا أنه التقى بعض مشايخ بسكرة كسيدي أحمد بن عبد العاطي، الذي أدخله داره و أكرمه، و أراه الكثير مما تكتنزهمكتبته من كتب و مخطوطات، و هناك التقى بالكثير من علماء خنقة سيدي ناجي ببسكرة حاليا، و العياشي شاهد على انتشار الزوايا العلمية و الصوفية ومقامات و أضرحة الأولياء الصالحين بالمنطقة خلال القرن السابع عشر[26]

اللباس: لم يتعرض فويللو كثيرا للباس، و لم يهتم بوصفه إلا نادرا، ومما ذكره أن الحارسين الذين أرسلهما الشيخ أحمدد بن محمد شيخ قرية نقرين كانا يلبسان برنوسين، إذ قال: " كانا مكورين في الحفرة يغطان في نومهما و هما ملتفان ببرنسيهما"، كما ذكر أيضا أنه كان يلبس برنوسا هو و أعضاء فريقه، و ذلك عند حديثه عن العاصفة التي تعرضوا لها، إذ قال أنهم كانوا يغوصون في برانسهم لعلها تحميهم من المطر. هذا عن الرجال، أما النساء فقد أشار إلى لباسهن عندما وصف العرس الذي حضره، بأنهن كن متحجبات ملتزمات بستر أنفسهن باستثناء الطاعنات في السن [27] و المستخلص من هذا هو أن المجتمع الريفي خاصة لم يحاك المستعمر في لباسه، رغم أن هذا الأخير كان في عز قوته.

أما لباس الفتيات، فكان يشبه لباس التوانسة في المناطق القريبة من الحدود، كقرية تامزرة التي مر بها، كما كان تعدد الزوجات منتشرا هناك، حيث أن زوجة بول فويللو التي زارت عائلة القائد وجدت عنده أربع زوجات.[28]

6.3 الواقع الصحي:

ليس غريبا أن يكون الوضع الصحي متدهورا و الأمراض منتشرة في ظل الاحتلال الفرنسي، و وخاصة مرض الرمد الذي كان منتشرا بالصحراء بسبب تطاير الرمال[29]، و الأوساخ، بالإضافة لسوء التغذية و قلة

الأدوية و انعدام الأطباء، و حتى و إن وجدوا فهم في خدمة المحتل، أما الأهالي فلا يستفيدون إلا قليلا و في المدن الكبيرة وخاصة الشمالية و التي يطلق عليها المدن الأوربية أو المختلطة، و غالبا ما تكون الخدمات الصحية مقرونة بالموالاة و التبشير، أما في الأرياف و الصحراء فلا علاج و لا دواء سوى العلاج المحلي بالأعشاب، و على يد مواطنين أميين، و لذلك غالبا ما تكون الوفيات كثيرة. و قد نقل لنا الرحالة صورة عن المجتمع الفقير الذي يعاني من بعض الأمراض، خاصة مرض العيون المسمى عربيا الحثار أو الرمد الحبيبي(تراكوم) Trachome،[30] و الذي ذكره الرحالة جورج روبير صاحب كتاب رحلة عبر الجزائر، عند وصفه الحالة الصحية بمدينة سيدي عقبة ، أنها فقيرة و بها مرض العيون [31].

كما يعاني سكان الصحراء و خاصة البدو الرحل من لدغات العقارب و الأفاعي بسبب مشيهم حفاة، فكل عام يموت عدد من الذين يمشون حفاة الأرجل ، و لعدم وجود الأطباء و الأدوية، فأغلب الذين يلدغون يموتون[32].

7.3 الاعتقادات و الأساطير:

للأسطورة حيز كبير في مخيال بعض الشعوب، و لها مكانة ترقى لدرجة التقديس ، و هي تتواتر من جيل إلى جيل، مشفوعة بالسرد الشفوي. و من الأساطير التي كانت بالزاب الشرقي، نذكر أسطورة شجيرة الرطم، و التي تقول أن شخصا كان يملك بغلا ، و ذات يوم لاحظ عليه علامات الكلب، فلأراد التخلص منه دون أن يقتله، فأخذه إلى شجيرة الرطم و ربطه بها و تركه يلقى مصيره، و بعد مدة مر بالمكان معتقدا هلاكه جوعا و عطشا، لكن المفاجأة أن البغل بقي حيا، بل و شفي من مرض الكلب، و ظلت الأسطورة متداولة بين أهل المنطقة، فدونها رحالتنا بعنوان: "دواء عربي ضد داء الكلب".[33]

أما الأسطورة الثانية، فتتعلق بالولي الصالح " سيدي زرزور، دفين الوادي الذي يحمل اسمه بمدينة بسكرة، فقد روى الدليل الذي كان يرافق فوبللو في رحلته مسعود، أنه في أحد الأيام كان أحد المسلمين مع يهودي بالوادي المذكور قريبا من الضريح، و إذ بالوادي يحمل عليهما بماء كثير و غزير، فالتجأ الرجلان للاحتماء بالولي الصالح المدفون بسرير الوادي، غير ان ذلك اليهودي جرفته المياه الغزيرة و مات غرقا، في حين نجا المسلم و خرج سالما، و ذلك بفضل عناية الولي الصالح بالمسلم و غضبه على اليهودي[34]. و لا يزال مجتمع الزيبان إلى الآن يزور ضريح الولي سيدي زرزور، و يؤمنون بكراماته، معتقدين أن صموده أمام مياه الوادي برهان على كراماته.

و كذلك من الأساطير التي تلقى آذانا صاغية و قبولا في أذهان الناس، لاسيما سكان المنطقة، تلك التي لها علاقة بالدين و رجاله، فقد لاحظ بول فوبللو أن السكان يكنون احتراما كبيرا للأئمة و رجال الدين، حيث أن سكان قرية تامغزة قرب الحدود التونسية في أقصى الزاب الشرقي، يعتقدون في قدرات إمامهم و التي منها قدرته على جلب المطر إذا شاء [35]، كما تذكر الروايات أن مئذنة مسجد سيدي عقبة ترتج كلما ذكر أحد المسلمين سيدي عقبة بن نافع [36]

خاتمة:

عرفت الجزائر عدة رحلات مختلفة المآرب و الغايات، لكنها نقلت لنا وقائع الحياة السالفة في تلك المناطق، فكانت مصادر للمعلومة، و قد قصد الرحالة مختلف بقاع الجزائر شرقا و غربا، شمالا و جنوبا، و في القرن التاسع عشر زار العديد من الرحالة الجنوب، و نقلوا ما لاحظوه به، و بينهم بول فويللو الذي وصف لنا حياة المجتمع الصحراوي في شقه الشرقي و بالتحديد في منطقة الزيبان و الجريد بكونه مجتمعا محافظا على عاداته و تقاليده بكل تفاصيلها، كما كانت قبل الاحتلال الفرنسي، إذ أجمع الرحالة الذين مروا بالمنطقة على الصفات التي ميزته من كرم الضيافة و حسن استقبال الضيوف، و توفير المأوى و الأمن لهم، بالإضافة لتمسكه بتعاليم الدين الإسلامي في المعاملات، و وكانت الأوضاع الصحية سيئة بسبب عدم وجود أطباء، أما الغذاء فكان معظمه محليا الإنتاج من تمر و حليب و كسكسي، كما شاعت في المجتمع بعض الأساطير التي بقي بعضها إلى الآن. ووصف الرحالة لنا ثياب الرجل و المرأة كل على حدى فكان الحياء ميزة لدى المرأة رغم مساعدتها للرجل في بعض الأعمال، حتى في الأفراح و الأعراس لم يكن هناك اختلاط، بل كل من الجنسين يكون في جهة، فالمجتمع الجزائري خاصة الريفي البدوي لم تصله تأثيرات المستعمر بنفس الشكل الذي تأثر به شمال البلاد، و هذا يتجلى في مختلف تفاصيل عيشه البسيط.

6.المراجع

• **الكتب:**

العربية:

1- أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، عدد 14، 15(عدد خاص)1971م.

2- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاث مائة سنة بين الجزائر و إسبانيا، 1492-1792م، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط2، الجزائر، ، 1976م.

3- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى و شواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

4- الهادي الوسلاني، المستشفى الترينتاري الإسباني بتونس، تونس، 1981.

5- هاينريتتش فون مالتسان ، ثلاث سنوات في شمال إفريقيا، الكتاب السادس، ج3، ترجمة: أبو العيد دودو، شركة دار الأمة، الجزائر، 2009.

6- يوهان ألبريشت، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو، المجلد1، دار الأمة، الجزائر.

7- يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، المجلد الثاني، تعريب أبو العيد دودو، دار الآمة، ط1، الجزائر، 2009م.

8- سهيل إدريس، المنهل، قاموس فرنسي عربي، دار الآداب، بيروت 2013.

9- عبد الله البكري، المغرب في ذكر إفريقية و المغرب، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857.

10- سيمون بفايفر، مذكرات جزائرية، عشية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو، دار الأمة، الجزائر، 2009.

11- عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي و الاجتماعي، 1830-1960م، تر:جوزف عبد الله، المكتبة التقدمية، در الحداثة، بيروت، دس.

12- سعيد عدي، الصحراء الكبرى و شواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

الأجنبية:

1- Achour cherfi, dictionnaire des localités Algeriennes , casbah edition, 2011, p 1016.

2- George Robert, Voyage a travers lAlgerie, notes et crokis, 1886- 1887, Paris, imprimerie G. Rougier, 1891

3- Pierre Allorant, l'escale potuaire dans les voyages africains du géographe, paul vuillot : les figures du recit l'immaginaire colonial, les realités administratives, revue d'histoire, outre- mers, France, 2010

4- Pierre Dan, histoire de barbarie et de ses corsaires, des royaumes et des villes d'Alger, de Tunis, de Sale et de Tripoly, mprimerie Pierre Rocolet, Paris,

5- Ratheau, Alexandre: l'Algérie Vue a Titre d'Ailes, ou Lettres d'un oiseau de passage, Alger, librairie algérienne et coloniale, 1879.

المقالات:

1- انساعد سميرة، الصحراء الجزائرية في عيون الرحالة الجزائريين، خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، مجلة دراسات، العدد2، ديسمبر 2012.

2- بوسليم صالح، و آخرون، ملامح من الحياة العامة بالجزائر في بعض كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني، ، الحوار المتوسطي، العددان 9-10.

الاطروحات:

فاتح بلعمري، الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة، 2016-2017م.

[1] - Pierre Allorant, l'escale potuaire dans les voyages africains du géographe, paul vuillot : les figures du recit l'immaginaire colonial, les realités administratives, revue d'histoire, outre- mers, France, 2010, p.p, 199-218.

[2] - بسكرة: مدينة ضاربة في القدم، كانت تسمى في العهد الروماني "زابا"، و منها جاءت كلمة بلاد الزاب على لسان العرب الفاتحين و جمعها "زيبان"، و لكنها ليست زابا الموريطانية السطايفية " المسيلة حاليا" وكانت تعتبر في العهد الاستعماري العاصمة السياسية لبلاد الزاب ، تفصلها عن سهل الحضنة سلسلة مرتفعات و جبال. للمزيد أنظر: هاينريتتش فون مالتسان ، ثلاث سنوات في شمال افريقيا، الكتاب السادس، ج3، ترجمة: أبو العيد دودو، شركة دار الأمة، الجزائر، 2009، ص: 122-123.

George Robert, Voyage a travers lAlgerie, notes et crokis, 1886- 1887, Paris, imprimerie G. Rougier, 1891, P, 373.

[3] - تقع بمنطقة الجريد التونسي بالقرب من الحدود الجزائرية، أنظر: عبد الله البكري، المغرب في ذكر إفريقية و المغرب، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857، ص48.

[4] - رودير: هو قائد عسكري كلفته فرنسا بمسح منطقة شط ملغيغ ووضع خريطة له في عامي 1874و 1875م، كما كان كلف بتثليث أراضي بسكرة الجنوبية عامي 1872-1873، للمزيد أنظر: بول فويللو ، من الزيبان إلى الجريد عبر الشطوط الجزائرية، .....ص 7. كما كلف رودير بتثليث أراضي بسكرة الجنوبية عامي 1872-1873(التثليث هو مسح الأراضي بالاستعانة بعلم المثلثات تسهيلا لرسمها) للمزيد أنظر: سهيل إدريس، المنهل، قاموس فرنسي عربي، دار الآداب، بيروت 2013، ص 45.

[5] - Paul vuillot, p 23 .

- Pierre Allorant, op, cit, p 205.

[6] - أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، عدد 14، 15(عدد خاص)1971م، ص11.

[7] - الثالوث المقدس: (la santa Trinidad y redemcion) هي هيئة أنشأها الأوربيون لافتداء أسراهم سنة 1198م، و تعود فكرتها للأحد الجنود الفرنسيين المتعصبين للمسيحية، و هو جان دي ماطا (jean de matha)، وباركها البابا إينوسنتو الثالث، و على إثر ذلك تم الشروع في الدعاية لكراهية المسلمين و اختلاف الأهوال التي يتعرض لها الأسرى المسيحيون و نشر الحقد و استباحة مهاجمة المسلمين، ، بلغت قمة إشعاعها خلال القرن 16مالذي حميت فيه الحروب بين المسلمين و المسيحيين، للمزيد أنظر: فاتح بلعمري، الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة، 2016-2017م، ص 53. الهادي الوسلاني، المستشفى الترينتاري الإسباني بتونس، تونس، 1981، ، ص 167.

[8] - Pierre Dan, histoire de barbarie et de ses corsaires, des royaumes et des villes d'Alger, de Tunis, de Sale et de Tripoly, mprimerie Pierre Rocolet, Paris, p54

[9] - فاتح بلعمري، المرجع السابق، ص.ص 46-47.

[10] - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاث مائة سنة بين الجزائر و إسبانيا، 1492-1792م، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط2، الجزائر، ، 1976م، ص 86

[11] - أحمد السليماني، مرجع سابق، ص 71-72

[12] - يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، المجلد الثاني، تعريب أبو العيد دودو، دار الامة، ط1، الجزائر، 2009م، ص.ص 78-99.

[13] - سعيد عدي، المغرب و العالم المتوسطي ما بين القرنين 16و 20م، دار الأمان، الرباط، 2014، ص 68.

[14] - إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى و شواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص 110.

[15] - Ratheau, Alexandre: l'Algérie Vue a Titre d'Ailes, ou Lettres d'un oiseau de passage, Alger, librairie algérienne et coloniale, 1879, p 137

[16] - Paul Vuillot , op, cit, p.p 71

[17] - مادة أساسية و غذاء كامل يعتمد عليه سكان بلاد الزاب و الواحات بشكل رئيسي، أنظر: سيمونبفايفر مذكرات جزائرية، عشية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو، دار الأمة، الجزائر، 2009، ص147.

[18] - Paul Vuillot , op, cit, p.p 77-83.

[19] - Paul Vuillot, op, cit, p.p 26.40.

[20]- الدواوير جمع دوار، و هو تجمع من مجموعة خيام للبدو الرحل، يكون على شكل دائري، و غالبا ما يكون بمنطقة يتوفر بها الكلأ للحيوانات، و يعود تكوين الدوار إلى العهد الاستعماري الفرنسي بقرار مجلس الأعيان بتاريخ 22 أفريل 1886م، أنظر عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي و الاجتماعي، 1830-1960م، تر:جوزف عبد الله، المكتبة التقدمية، در الحداثة، بيروت، دس، ص78.

[21] - Paul Vuillot, op, cit, p.p 52-69.

[22] - Paul Vuillot, op, cit, 29.

- سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 148

[23] - انساعد سميرة، الصحراء الجزائرية في عيون الرحالة الجزائريين، خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، مجلة دراسات، العدد2، ديسمبر 2012، ص 33

[24] - George Robert, op, cit, p 374. .

[25] - Paul Vuillot, op, cit, p 27.

[26] - بوسليم صالح، و آخرون، ملامح من الحياة العامة بالجزائر في بعض كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني، ، الحوار المتوسطي، العددان 9-10، ، ص 84.

[27] - Paul Vuillot, op, cit, p 29.

[28] - Paul Vuillot, op, cit, p 83-84.

[29]- يوهان ألبريشت، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو، المجلد1، دار الأمة، الجزائر، ص 51.

[30] - Paul Vuillot, op, cit, p.p, 60.66.

[31] - Achour cherfi, dictionnaire des localités Algeriennes , casbah edition, 2011, p 1016.

[32] - Paul Vuillot, op, cit, p 59.

[33] - Paul Vuillot, op, cit, p 81

[34]- Paul Vuillot, op, ci, p 25.

[35] - Paul Vuillot, op, ci, p ,70.

[36] - George Robert, op, cit, p, 379.